الفصل التاسع

عبد العزيز الثانى ابن سعود

obeikandl.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

عبد العزيز الثاني ابن سعود

أصبحت إمارة الكويت بعد موت «محمد بن رشيد» ولفترة قصيرة محور الصراعات السياسية في الجزيرة العربية، كما أصبحت بؤرة التوتر والمنافسة الدولية. كان الأتراك قد خسروا حليفاً لهم في قلب الجزيرة العربية لا يقدر بثمن، كما كانوا على يقين بأنه لا يمكنهم الاعتماد كلياً على «عبدالعزيز بن متعب بن رشيد» خليفة «محمد بن رشيد» الذي كان أميراً على «حائل». ولم يكن بالإمكان وضع «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» في نفس المرتبة التي كان يتمتع بها زعماء قبائل «سعدون» في منطقة «المنتفق» العراقية، أو في نفس مرتبة الشيخ «مبارك الصباح»، علماً بأنه كان من الممكن للأتراك أن يعطوا «عبد العزيز بن رشيد» قيمة ومكانة، وذلك عن طريق مده بالمال والسلاح بالرغم من عدم ارتياحهم له.

من غير المحتمل أن يكون لـ «سعدون باشا» طموح في حكم وسط الصحراء العربية، فقد كان راضيا تماماً بمركزه القوي في جنوب العراق، وكان ينظر إلى الصحراء على أنها مجرد ساحة للغزوات العادة والمناوشات بين فرسان ذلك العصر، لكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لـ «مبارك» الذي كان يحلم بأن يأخذ مكان المرحوم «محمد»، وكان لديه أوراقاً رابحة يمكن أن يلعبها وذلك لكون الشخصيات الرئيسية من عائلة «آل سعود» كانوا يعيشون ضيوفاً لديه في المنفى. إن ما زاد من تفاؤله كان التصرف المستبد الذي سلكه «ابن رشيد» الجديد تجاه رعاياه. فلم يمضي وقت طويل حتى أثارت الحكومة البريطانية مخاوفه بخصوص الوضع في الكويت ونبهته لضرورة حماية

الكويت من أي اعتداء أجنبي، استناداً لما كان لدى الحكومة البريطانية من أخبار عن المباحثات العثمانية الألمانية المتعلقة بإقامة خط سكة حديد يربط بين بغداد وبرلين. وهكذا أطلقت يد «مبارك» ليقوم بمغامراته في الصحراء العربية التي كان يحتفظ بمفتاحها في جيبه، وكان بإمكانه أيضاً أن يعتمد على تعاون «المنتفق» معه في حملاته داخل المناطق الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد» الجديد، ولذلك السبب قام بغاراته مع رجال البدو ضد المناطق المتاخمة للعراق.

في الواقع اتخذ «ابن رشيد» عنصر المبادرة في تلك المسألة، ففي خريف عام ١٨٩٨ قام بتفقد المناطق المجاورة للرياض ليتأكد من أن الأوضاع في الأراضي النجدية التي مضى على حكم عمه الفعلي عليها إحدى عشر عاما كانت على ما يرام. فقدم إليه وجهاء الرياض وكبار رجال الدين فيها ليبايعوا حاكمهم الجديد، وبعد أن اطمأن من أن «عجلان» الحاكم الإقليمي كان مسيطراً على الوضع هناك، قرر الاندفاع في غارة على قبيلة «الدواسر» التي كانت في منطقة «مروطة». وقبل عودته إلى ديرته نفذ خطته وأغار عليهم وحصل على غنائم كثيرة منهم. وفي خريف العام التالي وكنتيجة للمراسلات التي دارت بينه وبين بعض المستائين من الكويتيين الذين كانوا يعيشون في المنفى بـ «البصرة» حول أنظاره باتجاه الشرق وقام بغزوة عادية ضد البدو على الحدود العراقية، وتوجه بعد ذلك بقواته نحو «الكويت» وهناك اشتبك مع القوات المحلية التي كانت تساندها قوات متحالفة معها من «المنتفق» وتمكن من هزيمتهم بسهولة ومكث هناك بعض الوقت قبل أن يعود إلى «حائل» ليقضي فيها فصل الصيف.

شهد أول خريف من القرن الجديد المزيد من التطورات وكان كلا الطرفين مستعدين للقتال، فقد شن «عبد الرحمن بن سعود» غارة على قبيلة «قحطان» في منطقة «سدير» وعاد وهو مدرك أن الظروف كانت مواتية للقيام بالمزيد من الغارات والغزوات. كان «ابن رشيد» في تلك الأثناء قد وصل بقواته حتى الحدود العراقية، وعسكر في منطقة «الهجرة» ليقضي فيها فصل الشتاء وليستغل أي ظرف يمكن أن يحدث فيها. وأثناء وجوده هناك وصلته أخبار مفادها أن «مبارك الصباح» ومعه قوة كبيرة قد غادروا «الكويت» باتجاه وادي «الشوكي» الواقع خلف صخراء «الدهناء»، ومن هناك تمكنوا من الوصول إلى «بريدة» عاصمة «القصيم». والجدير بالذكر أن قوة «مبارك الصباح» تلك كانت مشكلة من قوات «سعدون باشا» إلى جانب رجال قبائل «المنتفق» وفرقة مقاتلة من قبيلة «الظفير» ومعهم أمراء «آل سعود» الذين وجهوا نداءً إلى قبائل «العجمان» و «مطير» التي استجاب رجالها لذلك النداء وانضموا إلى الأمراء. لم يتردد «ابن رشيد» في مواجهة ذلك التحدي فسار بقواته وبسرعة باتجاه الغرب، تزامن ذلك مع توجه «عبدالعزيز (حديث السن) من وادي «الشوكي» على رأس قوة كبيرة ليجرب حظه في الرياض. وفعلاً تمكن من الدخول إليها عبر أطلال أسوارها المجردة من وسائل الدفاع، لكنه لم يتمكن من إضعاف القلعتين اللتين لجأت قوات «ابن رشيد» إليهما لتستعد ولتقاوم الحصار. كان لا بد من تسوية هذه المسألة على أرض المعركة في منطقة «الصريف» بالقرب من «بريدة». وفعلاً ألقي بكامل قوة المتحالفين في المعركة التي دارت في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٠١ ضد قوات «ابن رشيد». تمكن «ابن رشيد» في تلك المعركة من هزيمتهم، وفر مقاتلوهم في

حالة فوضى واضطراب باتجاه «الكويت». تحركت قوات «ابن رشيد» في إثرهم وطاردتهم ولم ترحم الفارين الذين وقعوا في أيديهم. وعندما تلقى «عبد العزيز بن سعود» أخبار تلك الكارثة انسحب بسرعة من الرياض. احتفل «ابن رشيد» بنصره ذلك بأن أنزل في أهالي «بريدة» وأهالي بلدان أخرى في «القصيم» أقسى أنواع الوحشية في التعامل وكان ذلك عقاباً لارتدادهم عن التحالف معه، وأرسل أيضاً الشخصية المعروفة «سالم بن سبهان» إلى الرياض ليقوم بالدور نفسه.

أصبح الآن بمقدور «ابن رشيد» أن يعود إلى تنفيذ خطته الأصلية التي وصل بموجبها في الخريف الماضي حتى منطقة «الجهرة». وكان من الواضح أنه توصل مع الأتراك إلى اتفاق يمكنه من مهاجمة «الكويت» التي ضعفت القوات المدافعة عنها بسبب معركة «الصريف». وعليه تحرك بقواته باتجاه «حفر الباطن» وسرعان ما وجد نفسه أمام أسوار «الجهراء» وهي قرية تقع على الطرف الداخلي من خليج الكويت، وهنا ناشد «مبارك» البريطانيين ليقدموا له المساعدة، وفعلاً أرسل البريطانيون سفينة حربية لتصف معسكر العدو. وفي ظل هذه الظروف وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الحصار غير الفعال، قرر «ابن رشيد» أن يتراجع بقواته إلى معسكره في «الحفر»، ومن هناك تابع المسير باتجاه «حائل» ليقضي استراحة فصل الصيف المعتادة. كان انتصاره في معركة «الصريف» بمثابة موضوع قيم جداً، لكن عنصر المبادرة في الانتصار تحول لصالح أعدائه.

يبدو أن «مبارك» و «عبد الرحمن آل سعود» لم يعد لديهما الجلد على القيام بالمزيد من المغامرات في الصحراء، بسبب الهزيمة التي لحقت بهما

مؤخراً. لكن «عبد العزيز» الحديث السن والذي كان قد بلغ من العمر واحداً وعشرين عاما، كان يتحفز للقيام بنشاط ما. ويمكن أن تكون تجربته الشخصية في الشتاء الماضي قد ولدت لديه بعض الأحلام التي بدورها شجعته لمعاودة المحاولة في الاستيلاء على الرياض.

حصل «عبد العزيز» على موافقة «مبارك» وموافقة والده على خطته في شن حملات وغزوات عبر الصحراء خلال خريف عام ١٩٠١. لكن لم تكن موافقتهما لتخلو من الهواجس والشكوك. غادر «عبد العزيز» الكويت ومعه أربعون شخصاً من أتباعه المجاهدين، وبدأ في حشد التعزيزات من البدو، وشرع في غزو القبائل المعادية له وصولاً حتى حدود إقليم «الأحساء» (الذي كان في تلك الفترة خاضع للاحتلال التركي) ومشارف إقليم «سدير». وفي شهر كانون الأول وصل إلى موارد مياه «حرض» (التي هي حالياً منطقة غنية بالنفط)، ومكث هناك ليقضي شهر رمضان. وما إن انقضى شهر رمضان حتى شمر عن ساعديه استعداداً للمغامرة الكبيرة التي توجت بعد خمس سنوات وبالتحديد في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٢ باسترداد الرياض. تكرر ذكر تفاصيل تلك المغامرة الدرامية مرات عديدة لدرجة أنه لا حاجة لذكرها في هذا السياق. قتل في تلك المعركة «عجلان» الحاكم الذي عينه «ابن رشيد» كما قتل معه العديد من رجال الحامية التي كانت تحت إمرته؛ وهرع أهالي الرياض الذين أصابتهم الدهشة والذهول ليقدموا مرة ثانية ولاءهم إلى عائلة «آل سعود» كما كان الحال في الأيام الخوالي. وخلال شهر من الزمن ارتفعت أسوار الرياض التي هدمها «محمد بن رشيد» لتحصن العاصمة السعودية من جديد.

أصبح همّ «آبن سعود»[1] الآن ترتيب أمور نقل والده وبقية أسرته من «الكويت» إلى «الرياض»، حيث أعد لهم استقبالا يليق بالأبطال. جلس الأب والابن ليتدارسا المشكلات التي تواجه حكمهم الجديد، وبسهولة اتفقا فيما بينهما على أن يحتفظ «عبد الرحمن» بلقب الإمام لكونه رئيس الأسرة الملكية الحاكمة، وأن يكون ابنه الرئيس الفعال للدولة والقائد العام للجيش، ولم يسفر هذا الوضع نوعاً ما عن أية مشكلات على صعيد الممارسة العملية، لأن «عبد العزيز» كان لا ينزل عن رغبة أو إرادة والده في القضايا الرسمية، كما أن الوالد لم يسمح لنفسه أبداً بأن يتدخل في شؤون الدولة التي كان مجلس قادتها الحكماء تحت إمرة ابنه دون أي تحفظ. وهكذا كانت ولادة علاقة ساحرة بين الابن وابنه، ارتكزت تلك الرابطة على تفاعل بين احترام الابن لأبيه وكرامة الأب المرعية باستمرار، قدر لتلك العلاقة أن تستمر دون أن يعكر صفوها أي توتر أو عدم اتفاق في الرأي، إلى أن توفي الإمام «عبد الرحمن» في عام ١٩٢٨ عن عمر يناهز الثامنة والسبعين. والجدير بالذكر أن «عبد الرحمن» كان ينوب عن ابنه «عبد العزيز» في كل القضايا التي لها علاقة بالإدارة المركزية في العاصمة نظراً لأن الابن كان منشغلاً في معظم الأوقات في ساحات القتال.

أصبح «ابن سعود» الآن مشغولاً بالمهام الصعبة والشاقة والرامية لاستعادة مكانة أسرته الحاكمة في كافة الأقاليم. وكان «ابن سعود» يتصرف بثقة تامة

(١) المقصود بابن سعود: هو جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مؤسس وموحد المملكة العربية السعودية الحديثة، وهو من الأسماء العديدة التي كانت تطلق عليه من قبل الكتاب والمؤرخين.

(المعلق)

من أن الأمور كانت تجري على ما يرام حتى في غيابه، وهكذا قام بنفسه باستعادة سيطرته على المناطق الجنوبية وعلى المناطق القبلية التي لم يعاملها «ابن رشيد» بلطف وكياسة. تقدم «ابن سعود» بقوته إلى مناطق «الخرج» و«الأفلاج» و «الحوطة» و «الحريق» ليحظى بقسم الولاء له من زعمائها ووجهائها. هذا وأرسل أهالي «وادي الدواسر» وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم له. لكن «ابن سعود» اضطر لمهاجمة قبيلة «قحطان» في منطقة «حلبان» ليؤكد للجميع إصرار الحاكم الجديد على قدرته في الحكم بالاسم والفعل.

طالما أن الموالين لابن سعود في الأقاليم الشمالية لم يكونوا في وضع يمكنهم من تحدي سلطة حكام «آل رشيد» المفروضة عليهم، فقد قرر «ابن سعود» ترك الأقاليم الشمالية لمناسبات قادمة. وكان «ابن رشيد» نفسه بطيئاً في الرد على الوضع الجديد في الجنوب، ولم يتمكن من السير بقواته جنوباً إلا مع حلول خريف عام ١٩٠٢، وفي طريقه إلى هناك أقام مقراً لقيادته في منطقة «رغبة» الواقعة على حافة سهل طويق، ومن هناك بعث فرق كشفية لتحاول التأثير على التحالف بين قبائل «العجمان» و «المرة» في الأحساء، إلا أن «ابن سعود» تصدى لمحاولته تلك بأن أرسل أخاه «محمد» ومعه ابن عمه «عبد الله بن جلوي» ليحبطا مكيدته تلك.

وبسبب التزام قبيلة «المرة» بالدعوة للشيخ محمد بن عبدالوهاب الرشيدي كان بالإمكان إسقاط تصرف قبيلة «العجمان» المتذبذب من حسابات المعركة وعدم الإكتراث به. وبينما كان «ابن رشيد» يعسكر بقواته في منطقة «رغبة» كان «ابن سعود» غير منشغل بأي شيء سوى أن يعد

الخطط لجره إلى المعركة. وكان أول عمل قام به هو أن ترك المدافعين عن الرياض وراء الأسوار يدافعون عنها وتوجه بقواته نحو «الحائر» في وادي حنيفة، ومن هناك تقدم باتجاه «الحوطة» ليحشد ويجند أهلها الشجعان بين صفوف قواته. في تلك الأثناء أيضا أرسل «محمد السديري» على رأس قوة ليحتل «الدلم» عاصمة «الخرج»، كما أرسل أخاه «سعد» إلى «الحريق» ليجلب المزيد من التعزيزات.

احتار «ابن رشيد» أمام هذه الاستراتيجيات، فما كان منه إلا أن تقدم نحو آبار «الحسي» عند مدخل ممر «الحيسية» واستراح هناك لفترة من الزمن، إلا أن اندلاع مرض الحمى بين صفوف قواته عكر صفر تلك الراحة. عطله ذلك الوباء بعض الشيء وكان ذلك التأخير – من وجهة نظره – أكثر خطورة من الإصابات التي نجمت عن ذلك الوباء، وعلى أي حال تقدم باتجاه «بنبان» ومن هناك هبط بقواته فوصل إلى منطقة «الخرج». كان «ابن رشيد» ينوي مهاجمة «الدلم» فوصل إلى واحات نخيل «نعجان» القريبة منها واحتلها، لكن الوقت كان متأخراً بعض الشيء ليقوم بإجراء آخر فعال. لم يكن «ابن رشيد» على علم بأن «ابن سعود» وصل بنفسه في الليلة السابقة إلى «الدلم» على رأس قوة كبيرة. وعندما دفع بقواته في صباح اليوم التالي إلى أرض المعركة تعرضت تلك القوات لنيران مهلكة صوبتها عليهم القوات المدافعة التي كانت مختبئة في واحات «الدلم» وأجبرتهم على التراجع بشكل فوضوي. هذا وطاردهم فرسان «آل سعود» في السهل الواقع بين الواحتين، إلا أن «ابن رشيد» تمكن من إعادة تنظيم قواته ودارت معركة شرسة دامت من وقت الظهر حتى غروب الشمس، وكانت النكسة بمثابة

عامل حاسم للغاية للقيام بهجوم مضاد في وجه قوة كانت أكبر من القوة التي كان يعتمد عليها، وعليه اضطر «ابن رشيد» إلى الانسحاب خلال ساعات الليل باتجاه «السلمية» في الطرف الشرقي من الإقليم، ومن هناك، وبعد مشاهدة خيالة «آل سعود» تطارد قواته، تحرك بقواته سريعاً باتجاه وادي «السلي» ووصل إلى آبار «حفر العتش» البعيدة والآمنة نسبياً.

وبعد بضع سنوات وأثناء وصفه للمعركة الحاسمة اعترف «ابن سعود» بأنه كان من الممكن أن تسير الأمور على نحو سيئ ولا تخدم قضيته لو أن «ابن رشيد» كان على علم بعامل واحد حيوي ومهم. ذلك يعني أنه كان لدى «ابن سعود» عدد كبير من المقاتلين، إلا أن مخزونة من الذخيرة كاد ينفذ خلال الاشتباكات، وكانت المطاردة التي قام بها فرسانة لقوات العدو أكثر من مجرد إشارة تحد، إلا أنها حققت الغرض المطلوب. ظل «ابن رشيد» على هدوئه في منطقة «حفر العتش» بالرغم من أن همته قد فترت بسبب الهزيمة التي لحقت به في منطقة «الدلم». على أي حال أمضى «ابن رشيد» الأشهر المتبقية من موسم عام ١٩٠٢/ ١٩٠٣ في حملات غزو شنها في اتجاهات متعددة. شجعته الانتصارات التي حققها ضد قبيلة «العتيبة» بالقرب من «الأرطاوية» وضد قبيلتي «سبيع» و «السهول» في صحراء «الدهناء» على التحرك باتجاه «الكويت»، وقام هناك بهجوم على رجال قبائل «العربدار» الذين كانوا على مقربة من الكويت نفسها. أدخل ذلك الهجوم الذعر في قلب الشيخ «مبارك»، وعلى الفور أرسل رسالة عاجلة إلى «ابن سعود» طلب منه فيها أن يقدم له العون، وعلى الفور وبسبب حاجته لتعويض مخزونه من الذخيرة قدم «ابن سعود» إلى الكويت على

رأس قوة كبيرة تقدر بعشرة آلاف رجل، وهناك انضم إليه «جابر» ابن الشيخ «مبارك» ومعه قوة تقدر بأربعمائة رجل. قامت تلك القوات بمهاجمة حلفاء «ابن رشيد» من قبيلة «مطير» الذين كانوا تحت إمرة «عماش الدويش» وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم في منطقة «الصمان» وسلب كل ممتلكاتهم. في تلك الأثناء قرر «ابن رشيد» الذي عاد مسرعاً إلى معسكره في «حفر العتش» أن يهاجم الرياض نفسها، وتمكن من الوصول بقواته إلى هضبة «أبو مخروق» التي تبعد على مسافة مد النظر من الرياض دون أن يشعر بتقدمه أحد، ومن هناك تقدم باتجاه العاصمة، ولسوء حظه أن أحد البدو لاحظ تقدم قواته باتجاه الرياض وأنذر «ابن سعود» بذلك، وعلى الفور قام أهالي الرياض بتعزيز تحصيناتهم وحشد قواتهم، وباعتبار أنه لم يعد الآن هناك مجال للقيام بهجوم مفاجئ، فما كان من «ابن رشيد» إلا أن نفس عن غضبه بأن دمر واحات النخيل المحيطة بالرياض وقتل عدداً من الفلاحين المسالمين. حدثت أيضاً بعض الاشتباكات بالقرب من أسوار الرياض بين الفرق المدافعة عن الرياض وبين قوات «ابن رشيد»، وكونه قد خسر عنصر المبادرة قرر «ابن رشيد» في اليوم التالي التخلي عن محاولته في احتلال الرياض وسحب قواته وتوجه بها شمالاً، ولم يعد بعد ذلك الحدث باتجاه الجنوب مرة أخرى.

أصبح الهم الرئيسي لـ «ابن رشيد» الآن هو أن يعزز قوة أقاليم «الوشم وسدير والمجمعة» في الشمال لتقاوم أية محاولة يمكن أن يقوم بها «ابن سعود» لاستردادها، ولذلك بنى «ابن رشيد» قلعة في منطقة «ثرمدا» في الوشم، ووضع بها حامية قوية للدفاع عنها، كما قام بوضع حاميات مماثلة في «المجمعة» و «روضة سدير»، وبعد أن أمن على أن شقراء» عاصمة إقليم

«الوشم» كانت إلى جانبه، شعر أن بإمكانه التراجع باتجاه إقليم «القصيم» لينظر ويراقب تطور الأحداث.

وعند عودته إلى الرياض قادماً من الكويت وجد «ابن سعود» نفسه مسيطراً سيطرة تامة وبدون منازع ليس فقط على إقليم «العارض» (الذي يشتمل على العاصمة الرياض)، بل أيضاً على كل الأقاليم في جنوب «نجد». وأفادت أول الأخبار التي وصلت من أرض المعركة بعد وصوله أن «مساعد بن سويلم» الذي كان الإمام «عبد الرحمن» قد أرسله على رأس قوة لاحتلال المناطق الشمالية في أعقاب تراجع العدو، لم ينجز مهمته فحسب بل زاد عليها أن شن هجوماً على «شقراء»، ولم يبد القائد الرشيدي هناك والمدعو «صويغ» أية محاولة للدفاع عنها بل هرب إلى قلعة «ثرمدا» وتبعه إلى هناك «مساعد» بعد أن احتل عاصمة «الوشم» بدون مقاومة. أرسلت التعزيزات على الفور إلى إقليم الوشم تحت إمرة «عبد الله بن جلوي»› لكن يبدو أن حامية «ثرمدا» كانت قد جلت قواتها عن القلعة تحت جنح الظلام قبل أن تصل تلك التعزيزات. وفي تلك الأثناء كانت قوات أخرى قد وصلت إلى إقليم «سدير» قادمة من الرياض، ولم تلقى تلك القوات أية مقاومة إلا في منطقة «الروضة»، وعلى أي حال تم دحوها وهربت القوة إلى «المجمعة».

يبدو أن «ابن سعود» في هذه المرحلة كان قد توجه شمالاً ليدير العمليات بنفسه، ولم يكن بإمكان «ابن رشيد» أن يفعل أي شيء قبل عودته إلى ديرته بشكل نهائي أكثر من أن يدمر بعض القرى العاجزة عن الدفاع عن نفسها

والقريبة من منطقة «عشيرة» الواقعة على التخوم الشرقية لإقليم «سدير». والجدير بالذكر أنه كان قد وصل إلى «عشيرة» عن طريق «الزلفي» في محاولة منه لاستعادة الأوضاع هناك. وحيال هذا الوضع سارع أهالي «المجمعة» لاستدرار رأفة «ابن سعود» ومسامحته لهم عن زلاتهم الماضية، واستسلمت أيضاً مدينة «الزلفي» له، وهكذا انهار كل النظام الدفاعي لهذه الأقاليم الذي كان «ابن رشيد» قد رتبه على عجل قبل تراجعه إلى «القصيم».

تم ذلك الانهيار بشكل غير عادي عند ظهور أول بوادر قوات «ابن سعود»، وقد سبب القتال الذي نشب للاستيلاء على إقليم «القصيم» الحيوي بالنسبة للقائدين مشكلات جادة. ومن الواضح أن «ابن رشيد» بدأ يدرك أن مكانته أصبحت محفوفة بالمخاطر بسبب تخلي القرى والقبائل عن قضيته، لكنه كان لا يزال يسيطر على مصادر ثروات القصيم لإطعام جنوده طيلة وجودهم هناك، إلا أنه لم يكن ليثق بأن أهالي القصيم سيقفون إلى جانبه إذا تردت الأمور، وبدا أن أمله الوحيد في التصدي لتقدم قوات «ابن سعود» كان يمكن في البديل الأكثر خطورة وهو مناشدة الأتراك في تقديم العون له. لن يكون الأتراك في تلك الحالة مستائين من تقديم ذلك العون لسبب بسيط هو أنهم نتيجة هذا الموقف سيضعون قدمهم في وسط الصحراء العربية لدعم إقليم «الأحساء» الخاضع لسيطرتهم، والذي فازوا به نتيجة تدخلهم قبل ثلاثين عاماً لدعم موقف «عبد الله بن سعود».

قرر «ابن رشيد» أن يتمسك بالقشة الأخيرة تلك، ولذلك أرسل رسائل إلى الوالي التركي في بغداد وشرع في إعداد ترتيبات مؤقتة للدفاع عن «القصيم» مستبقاً بذلك وصول جنود السلطان التركي. فأقام معاقل قوية في

منطقتي «عنيزة» و «بريدة» ووضع الحامية في «بريدة» تحت إمرة الحاكم المحلي، كما وضع الحامية في «عنيزة» تحت إمرة ابن عمه «ماجد بن حمود» تحسباً من ردة فعل أهالي «عنيزة» المشكوك في ولائهم له، وأقام موقعاً متقدماً عززه ببدو قبيلة «حرب» وواصل نشر قواته حتى منطقة «السر» وجعل «حسين بن جراد» قائداً على ذلك الموقع وكلفه بمراقبة أي تقدم للقوات السعودية وبالتصدي لها إذا اقتضى الأمر.

أما بالنسبة لـ «ابن سعود» فقد وضعه احتلاله السهل لكافة الأقاليم وصولاً إلى حدود إقليم القصيم حيال ورطة ومأزق صعب، إذ إن الجفاف الذي جلبه فصل الشتاء وميل قادة «ابن رشيد» إلى نزعة السلب والنهب جردا كل المناطق الخاضعة له من خيراتها، فلم يكن بإمكانه الاعتماد كلياً على دعم الأهالي في حال قرر أن يجازف بالتقدم الفوري باتجاه القصيم. وبالطبع رأى كبار الشخصيات المعروفة بتأييدها لقضيته أنه من الحكمة أن يرفعوا أيديهم عن موضوع القصيم خوفا من انتقام «ابن رشيد» وأخذه للثأر منه وفضلوا في تلك المرحلة استمرار الإقامة في الكويت بانتظار تطور الأوضاع في منطقة «نجد». وعليه قرر «ابن سعود» العودة إلى الرياض مؤقتاً وأرسل رسالة إلى «الشيخ مبارك» يطلب منه أن يرسل أهل القصيم إلى «نجد» لينضموا إليه، وكانت هذه الجماعات متلهفة لحدوث فرصة يمكنهم من خلالها المساعدة في تحرير مناطقهم من نير الحكم الرشيدي. وفعلاً وصلت إلى الرياض جماعة منهم تقدر بمائتي رجل كان بينهم «عبد العزيز السليم» زعيم «عنيزة» و «صالح المهنا» زعيم «بريدة».

لم يضيع «ابن سعود» الوقت فسارع في تنشيط عملياته، فاشتبك في أوائل شهر آذار من عام ١٩٠٤ مع جماعة «حسين بن جراد» في منطقة

«السر» وألحق بهم هزيمة نكراء كما ألحق الهزيمة أيضا بمؤيديهم من قبيلة «حرب» في منطقة «فيضة السر». وعند نهاية ذلك الشهر تمكن بعد أن تجنب الموقع المتقدم الذي كان إمرة «ماجد بن حمود» من شق طريقه ليلاً وتمكن من دخول «عنيزة»، وحدث هناك اشتباك قتل فيه نائب «ابن رشيد» المدعو «فهيد بن سبهان»، كما قتل أخو «ماجد» المدعو «عبيد». لم يكتفي «ابن سعود» بالاستيلاء السهل على مدينتين رئيستين في إقليم القصيم. فسار بقواته ليلاً يبحث عن موقع القوة الرئيسية لعدوه التي كانت تحت إمرة «ماجد»، ووصل به البحث حتى وصل إلى أواسط واحات النخيل في وادي «الرّمة»، وهناك هاجم عدوه على حين غرة وحدث اضطراب بين الجنود، فما كان من «ماجد» إلا أن هرب وتمكنت قوات «ابن سعود» من الاستيلاء على المعسكر وأخذت كل المؤن والمعدات التي كانت فيه. والحدث الطريف في هذه المرحلة أن «ابن سعود» عثر على أبناء عمه الثلاثة والذين كانوا إما في معسكر وادي «الرّمة» أو في «عنيزة» نفسها، والجدير بالذكر أن أبناء عمه الثلاثة هؤلاء هم أحفاد عمه «سعود» الذين كانوا قد انضموا إلى صفوف «ابن رشيد» على أمل أن يستعيدوا حكمهم على العاصمة الرياض بفضل مساعدته وبفعل الشهامة التي أصبحت جزءاً من شخصيته عفا «ابن سعود» عنهم وعرض عليهم أن يختاروا بين البقاء معه أو الالتحاق بـ «ابن رشيد». وعليه قبلوا عرضه الهادف إلى السلام والدال على حسن الضيافة.

أصبح الآن الطريق إلى «بريدة» سالكاً أمام «ابن سعود» فلم يجد صعوبة في احتلالها، علماً بأن الحامية الرشيدية هناك رفضت الاستسلام واستحكمت في القلعة الكبيرة لتقاوم الحصار على أمل أن يأتي «ابن رشيد»

في الوقت المناسب لكسر طوق الحصار عنهم. على أي حال لم يتحقق ذلك الأمل، وبعد مضي حوالي شهر من الاقتتال المتقطع والقنص استسلمت الحامية الرشيدية وفق شروط معينة، وسمح لها بالخروج مع أسلحتها لتلتحق بزعيمها في «حائل»، وأصبح «ابن سعود» الآن سيد الجزء الغربي من «القصيم» في حين بقي الجزء الشرقي وعاصمته «الرس» (ولو اسميا) على ولائه لـ «ابن رشيد» والذي سرعان ما تحول ليصبح قاعدة لعملياته. بدت مناشدة «ابن رشيد» للأتراك تؤتي ثمارها فوصلته ثمانية كتائب من القوات النظامية (التي كان بعضها من المدينة) تحت إمرة «صدقي باشا»، وكان بعضها الآخر من بغداد تحت إمرة «فوزي باشا» الذي كان في مركز القائد العام لكافة تلك القوات.

استسلمت «بريدة» في أوائل شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٠٤، وبعد مضي بضعة أسابيع على هذا الحدث بدأ «ابن رشيد» يتحفز، إذ كان الأتراك قد مدوه وبشكل تام بالمال والسلاح والمعدات، وأصبح بمقدوره أن يحشد ضمن قواته أعداد كبيرة من بدو قبيلة «حرب» وقبيلة «عتيبة» إضافة إلى رجال قبيلته من «شمر». وبهذه القوة من المحاربين إلى جانب الكتائب التركية، تقدم «ابن رشيد» باتجاه القصيم التي وصلها عند حوالي نهاية شهر آب، وبالتحديد يمكن القول إنه وصل إلى منطقة «القرعا» المجاورة لها. قبل «ابن سعود» ذلك التحدي وسار بقواته إلى منطقة «البصر» وهي إحدى الواحات الصغيرة في منطقة تعرف باسم «الخبوب»، وتمركز في موقع جعل من كثبان الرمال فيه ستاراً واقياً لقواته، وتمكن من ذلك الموقع من مراقبة تحركات «ابن رشيد» دون أن ينخرط في أي هجوم مباشر، وبدأت

المناوشات المتقطعة إلى أن تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه رمال «الشيحية» المتموجة حيث كان بإمكان مقاتليه أن يحتموا أثناء النهار بواحات النخيل المنتشرة هناك، كما كان من الممكن لفرسانه من ذلك الموقع أن يتحركوا بسهولة إذا اقتضت الضرورة.

رد «ابن سعود» على ذلك التحرك بأن تقدم إلى واحات «البكيرية» الشاسعة وترك جيشه يرابط خلف كثبان الرمال العالية والممتدة طولاً والتي تفصل بينه وبين قوات العدو، ولم يباشر «ابن سعود» في الهجوم المخطط له أن يتم في فجر اليوم التالي. تجمعت قوات «ابن سعود» في واحات النخيل التي اتخذت منها مأوى لتخفف عن نفسها من لهيب شمس النهار، وعندما توسطت الشمس كبد السماء داهمتهم قوات «ابن رشيد» واحتدمت المعركة ودامت حتى غروب الشمس. استفادت قوات «ابن سعود» من واحات النخيل واستحكمت خلفها وتمكنت بذلك من إنزال خسائر جسيمة بين صفوف المهاجمين، لكن لم يكن بإمكان قوات «ابن سعود» البقاء في واحات النخيل بعد هبوط الظلام، ولوقعلوا ذلك لجازفوا باحتمال أن تدحرهم قوات العدو التي كانت تفوقهم عدداً. وبالتدريج ومن خلال حماية مؤخرتهم تمكنوا من التسلل عبر الواحات ووصلوا كثبان الرمال التي كانت خلفهم، ومن هناك سارعوا إلى التراجع بأقصى سرعة ممكنة تحت جنح الظلام.

ظلت قوات «ابن رشيد» مسيطرة على أرض المعركة، لكن أخيراً جاء دور قوات «ابن سعود» لتفاجئهم عند غروب الشمس فاصطدمت فرقة القصيم (التي كانت قد وصلت متأخرة جداً للمشاركة في القتال والتي لم يكن لديها

علم بتراجع قوات حلفائها) بقوات ابن رشيد إثر معركة النهار. ودارت كفة الموازين تماماً وتكبدت قوات «ابن رشيد» الكثير من القتلى والجرحى أثناء انسحابها من تلك الواحة، ويبدو من التقديرات عن هذه الفترة من تطور الأحداث أن الاشتباكات بين الفريقين استمرت على مدى اليوم أو اليومين التالين، إلا أن المواجهة الرئيسية بين القوتين كانت قد حدثت وانتهت لأن أهل القصيم توقفوا عن القتال وانسحبوا إلى قواعدهم، ذلك لأنهم علموا بخبر تراجع القوات الرئيسية في جيش «ابن سعود» وخافوا من وصول تعزيزات «ابن رشيد».

سحب «ابن رشيد» أيضاً قواته باتجاه معسكره في منطقة «الشيحية» لكنه ترك في «البكيرية» فرقة عمل في وقت لاحق على تعزيزها ودعمها. كان جيش «ابن سعود» في تلك الأثناء قد وصل بتراجعه إلى «عنيزة» وهناك أعاد تجميع قواته، وانضمت إليه في وقت لاحق فرقة رجال القصيم. وكان «ابن رشيد» قد أمر قواته بأن تتقدم باتجاه «البكيرية»، وهناك لقيت هذه القوات هجوما مباغتا ليلاً من قوات «ابن سعود»، فتراجعت قوات هذا المعسكر لتحتمي بالقرية ودارت هناك معركة ضارية استمرت طيلة الليل. وفي النهاية اضطرت قوات «ابن رشيد» إلى فك الاشتباك والهرب باتجاه «الخَبْراء»، وهناك حاولوا الاستيلاء عليها لكنهم فشلوا بعد حصار دام لعدة أيام استخدمت القوات الرشيدية فيه المدافع وقصفوا بها تلك القرية.

اتجه «ابن رشيد» بعد ذلك نحو «الرس» واعترضت تقدمه هناك قوة من فرسان «ابن سعود» التي كانت تحت إمرة أخيه «محمد» وأحبطت محاولته، فما كان منه إلا أن حول وجهة مسيره باتجاه قرية «الشنانة» المجاورة واتخذ

منها مقراً للقيادة ومكث فيها لمدة شهر تقريباً. حدثت خلال ذلك الشهر مناوشات متقطعة بين خيالة الفريقين، وبدأت قوات«ابن رشيد» الاحتياطية من البدو بالتململ بسبب صعوبة تأمين المراعي لجمالها حيال غارات العدو المتكررة. وعملياً فقد وجد نفسه مضطراً للقيام بإجراء سابق لأوانه، فسحب قواته إلى الخلف وكأنه في حالة تراجع باتجاه واحة مجاورة يقال لها واحة «قصر ابن عقيل» والتي تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من «الشنانة»، وأثناء ذلك التراجع قام «ابن سعود» بمطاردة قواته ومهاجمتها بشكل عنيف، وبعد مضي بضعة أيام من القتال الشرس قرر «ابن رشيد» تحت ضغط من البدو أن يتراجع عن القتال، فقامت قواته بتحميل معداتها وأسلحتها على الجمال التي انطلقت تحت جنح الظلام في رحلة طويلة باتجاه «حائل». وفي الصباح أطلق «ابن سعود» فرسانه في أعقاب القافلة الشاردة وأمر القوة الرئيسية من جيشه بممارسة الضغط والهجوم على مشاة قبيلة «شمر» وعلى القوات التركية التي كانت في وسط رمال قعر الواد. تمكن فرسان «ابن سعود» من إفساد وتدمير وسلب الجزء الكبير من مؤونة ومعدات وأموال تلك القافلة، وعندما علم «ابن رشيد» بذلك قرر العودة إلى المعسكر إلا أن الضغط المتواصل من قبل خيالة «ابن سعود» ألحق بهم الهزيمة. وهنا يقول المؤرخ «ابن ناصر»: «إنه قام بعض مقاتلي «ابن رشيد» بالسير مع البدو وبعدها هربوا من الخدمة، في حين شرد وتاه البعض الآخر في الصحراء ولقي مصرعه فيها، وأما ما تبقى منهم فاستسلم لقوات الإمام الذي أمن لهم المأوى وعاملهم معاملة حسنة».

دامت معركة «البكيرية» على مدى شهري أيلول وتشرين الأول، وانتهت

المعركة بانتصار تام لقوات «ابن سعود». رغم أن ثمانية كتائب من القوات التركية النظامية كانت قد انتشرت في أرض المعركة، لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الأتراك كانوا يحاربون تحت ظروف غريبة عليهم ووسط أحوال جوية غير مواتية تميزت بجفاف الصحراء في لهيب الصيف. على أي حال لم يكن أداء الأتراك متميزاً ومنوا بهزيمة على أيدي عدو شجاع ومتمرس في القتال لم تكن تتوافر لديه سوي مصادر قتالية أقل بكثير من تقنية وجودة معدات الأتراك أنفسهم.

تراجع «ابن رشيد» بقواته إلى «الكهفة» وهي قرية تقع ضمن حدود «جبل شمر» ومن هناك بعث بأخبار الكارثة إلى بغدا وناشد الوالي فيها أن يقدم له المساعدة. حدث عند هذه المرحلة من تطور الأحداث أن جاءت أخبار تفيد بوقوع تمرد عنيف ضد الحكم التركي (العثماني) في منطقة «اليمن»، وتفيد تلك الأخبار أيضاً أن ذلك التمرد تم بقيادة الإمام «يحيى حميد الدين». وبنفس الوقت كانت الحكومة العثمانية مضطرة لتضييق مدى مسؤولياتها في وسط الجزيرة العربية لتقوم بإجراء معين من شأنه أن يعيد سيطرتها وهيبتها في المناطق الجنوبية. وعليه صدرت الأوامر إلى «أحمد فوزي باشا» بأن يتوجه على جناح السرعة إلى «اليمن» ليتولى قيادة القوات الموجودة هناك إضافة إلى قيادة التعزيزات التي كانت في طريقها إلى هناك أيضاً، وكلف أيضا «صدقي باشا» بقيادة القوات الموجودة في المناطق الداخلية من الصحراء العربية، ويبدو أن «صدقي باشا» كان قد تلقى تعليمات بشأن إجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية للخلاف مع «ابن سعود»، وبالتالي ليخلص الأتراك المشاركين في الحملة العسكرية هناك من الورطة التي

وجدوا أنفسهم فيها وسط الصحراء.

قامت السلطات العثمانية في العراق في تلك الأثناء بإرسال رسالة عن طريق أمير الكويت إلى الإمام «عبد الرحمن» في الرياض تقترح فيها إجراء مفاوضات فورية على الصعيد السياسي، وتمت الموافقة على ذلك الطرح وتوجه الإمام إلى الكويت لمنافشة الأمور مع والي البصرة وبحضور الشيخ «مبارك». اقترح الأتراك أن يبقى إقليم «القصيم» بمثابة دويلة محايدة تقع بين دولتين تحول دون تصادمهما، على أن تقوم القوات التركية (العثمانية) بحمايتها والإشراف عليها إلى أن يتم التوصل إلى تسوية نهائية لكافة القضايا المتنازع عليها بين «ابن سعود» و «ابن رشيد». وافق الإمام على هذا الطرح دون تردد شريطة أن يحال الأمر إلى أهالي نجد ليصادقوا عليه. وهنا وصلت إليه أخبار مفادها أن ابنه عاد من «القصيم» وتحرك باتجاه «الأحساء» للقائه، وبعد أن تباحث الأب مع ابنه في أمر المفاوضات التي دارت في الكويت قرر العودة وبشكل فوري إلى القصيم. لكن في الواقع لم يذهب «عبد الرحمن» أبعد من «شقراء» حيث مكث هناك ليعيد تنظيم الأمور الإدارية ولينظم المزيد من المقاتلين بين قواته تحسباً للحاجة، وفي تلك الأثناء استمر ابنه في التقدم باتجاه «عنيزة» لمقابلة «صدقي باشا» و «فوزي باشا» اللذان كانا لا يزالان موجودين هناك. وفي ذلك اللقاء أعيد طرح موضوع إقامة المنطقة المحايدة على أن ترابط القوات التركية في «بريدة» و «عنيزة». رفض ذلك الطرح بالرغم من قبوله من قبل «صالح بن مهنا» الذي وجد نفسه في دور الزعيم القصيمي المفاوض تحت الحماية العثمانية وبشكل مستقل تماماً عن «حايل» و «الرياض». وكلما تمخضت عنه المفاوضات

المتجددة كان التوصل إلى اتفاق يقضي برحيل القوات التركية عن بغداد وعن المدينة المنورة على أن يؤمن «ابن سعود» سلامة انسحابها ويضمن عدم تحرش القبائل بها أثناء الرحيل. وكأجراء احترازي ضد أي غدر من المحتمل أن تقوم به القوات التركية، أمر «ابن سعود» بضرورة أن تجتاز القوة التركية الموجودة في بغداد كافة مناطق ما بين النهرين قبل أن يمهد لقوة المدينة بالرحيل عن القصيم، وفعلاً تم تطبيق هذا الاتفاق دون حدوث أية عراقيل.

وهكذا رحلت القوات التركية عن الصحراء العربية (نجد) إلى الأبد، وأصبح «ابن سعود» في موقف يمكنه من فرض إرادته على إقليم القصيم. قصد «ابن سعود» أن يستفيد من صمته في العمل على تسوية مشكلة معينة، كما أنه انزعج كثيراً من المكائد التي كانت الفئات المتناحرة تقوم بها في ذلك الإقليم، ومثال على ذلك التحذيرات التي صدرت عن زعيم بريدة «صالح ابن مهنا» من أن «ابن رشيد» سيقوم قريباً بتصفية حساباته مع «ابن سعود». وحيال هذه الأمور ما كان من «ابن سعود» إلا أن ترك إقليم القصيم يتخبط في رغبته وإرادته وعاد إلى «الرياض»، لكنه كان مطمئنا للغاية من أن الأتراك لن يقوموا بأية محاولة للعودة إلى ذلك الإقليم. والسبب الحقيقي لهذا الإجراء هي الأخبار التي وصلت إليه من «قطر» والتي تفيد بأن «أحمد» قد تمرد على أخيه «قاسم بن ثاني» حاكم «قطر» تدعمه في ذلك التمرد قبيلة «المرة»، وذكرت تلك الأخبار أيضاً أن كفة «أحمد بن ثاني» بدأت ترجح في ذلك التمرد، ولذلك توجه «ابن سعود» على جناح السرعة إلى مسرح الأحداث وتمكن من قمع التمرد بسهولة، بعدها فر «أحمد» إلى البحرين للنجاة بحياته.

وما أن أدار «ابن سعود» ظهره لإقليم القصيم حتى قام «ابن رشيد» (كما سبق له أن تنبأ) بمعاودة نشاطاته ضد ذلك الإقليم، وأرسل قوة كبيرة بغزو بلدة «الرس» وتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة وهرب أهلها باتجاه «الشقة»، إلا أن قوات «ابن رشيد» طاردتهم لكن القرويين هناك تمكنوا من دحر المهاجمين. هذا وقامت قوات «ابن رشيد» أيضاً بغارة أخرى على «الطرفية» أسفرت عن ذبح أربعين من المزارعين العزل في حقولهم، كما هاجموا قبيلة صغيرة تدعى «الحمادين» ونهبوا جمالهم وماشيتهم، وقد خلفت هذه الأحداث (التي كانت أكثر من مجرد مضايقات وإهانات صغيرة بحد ذاتها) شعوراً بانعدام الأمن في الإقليم، وألقى الأهالي هناك اللوم على «صالح المهنا» لعدم تعاونه مع «ابن سعود». ولصرف الأنظار عن المكائد التي كان يرتبها بالتعاون مع «ابن رشيد» قام «صالح المهنا» بإرسال أخيه «مهنا» إلى «عنيزة»، كما بعث برسول إلى الشيخ «مبارك» الذي كان يجري أيضاً اتصالات سرية مع «حائل» ولمح من خلال هذين الرسولين عن نيته في التقرب إلى «ابن سعود» بغية التوصل إلى تسوية شاملة. لم يكن باستطاعة «ابن سعود» أن يتجاهل غصن الزيتون، لكنه أبدى ردة فعل مشوبة بالحذر. فأرسل فيما بعد أخاه «محمد» بقوة للغارة على قبيلة «حرب». وقاد بنفسه قوة باتجاه «بريدة» ومن هناك تقدم نحو «الأسياح» المتاخمة للمنطقة التي كانت قوات «ابن رشيد» تعسكر فيها، واصطحب معه في تلك الحملة «صالح المهنا» إضافة إلى فرقة من مقاتلي «بريدة»، ولكنه لم يكن مقتنعاً بالولاء الذي تظاهر به «صالح المهنا». وجد «ابن سعود» أنه من الحكمة أن يتراجع بقواته نحو «الزلفي» ومن هناك إلى «المجمعة»، وأمر قوة

«بريدة» بالرجوع إلى الرياض، لكن «ابن رشيد» كان في تلك الأثناء يمارس غارات متقطعة على مناطق الصحراء الشرقية، وكان يشنها من معسكره في «روضة مهنا»، الأمر الذي جعل «ابن سعود» يقرر مهاجمته.

قدم «ابن سعود» على رأس قوة كبيرة انضمت إليها قوات قبيلة «مطير» تحت قيادة «فيصل الدويش» الذي كان «ابن سعود» يشك نوعاً ما في تصرفاته، وتمكن ليلاً وسيراً على الإقدام من اجتياز الحاجز الرملي الذي يفصل بين قواته وقوات أعدائه، وحدث الاشتباك الفعلي في الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٠٦. كانت المعركة شرسة وتصرف «ابن رشيد» خلالها بشكل مناف للتقليد المعروف، إذ كان يدور بفرسه حول رجاله يجمعهم ويوجه هجماتهم وإلى جانبه حامل رايته وقائد قواته، وأثناء تجواله تمكنت قوات «ابن سعود» من التعرف عليه فأطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً، وكانت تلك هي نهاية المعركة. تفككت قوات «ابن رشيد» ولاذت بالفرار وهرب قادتها باتجاه «حائل» لا يفكرون إلا بالشخصية التي ستخلف «ابن رشيد» في الحكم. استولت قوات «ابن سعود» على الكثير من الغنائم التي تركتها قوات «ابن رشيد» في المعسكر، لكن «ابن سعود» لم يضيع الوقت في حصرها وتوجه بقواته وأغار على فريقين من قبيلة «حرب» في منطقتي «الرحي» و «أبو مغير»، وتقدم بعد ذلك نحو «بريدة» وهناك اعتقل «صالح المهنا» وأمر بإرساله إلى السجن في الرياض وعين ابن عمه المدعو «محمد العبد الله أبا الخيل» أميراً على «بريدة» بدلاً منه.

هدأ بال «ابن سعود» بعد مقتل «ابن رشيد» ولم يعد يفكر باحتمال حدوث اضطرابات تعكر صفو حكمه في المناطق التي تمتد حتى الحدود

الشمالية من القصيم. ويبدو أنه لم تكن لديه طموحات في المناطق التي تقع خلف تلك الحدود، فقد قويت قبضة «ابن سعود» على منطقة القصيم بعد إزاحة «صالح المهنا» عن السلطة. وعندما قام «متعب بن عبد العزيز» الرشيد الذي ثبت أقدامه في السلطة بعد وفاة والده بمبادرة لتسوية الخلاف، رحب «ابن سعود» بتلك المبادرة ووافق على استقلال «جبل شمر» ضمن حدوده الطبيعية، كما تعهد «متعب» بأن يعيد إلى الرياض كافة المقيمين في حائل من عائلة «آل سعود» الذي احتموا في «حائل» لكن على أمل أن يكرسوا الوضع القائم هناك لخدمة مصالحهم. وعلى أي حال لم يكتمل جلاء القوات التركية التي كانت في تلك الفترة تحت إمرة «سامي باشا الفاروقي» الذي خلف «صدقي باشا» في قيادتها. وطالما أن هناك بقايا من بقياهم فإن هناك مجالاً لظهور المزيد من المكائد. وبالرغم من التسوية التي توصل إليها «متعب» مع «ابن سعود» إلا أنه كان يجري اتصالات مريبة مع والي بغداد، لكن الأتراك لم يتأثروا كثيرا لتقربه منهم. حاول «سامي باشا» أن يقدم مساعدة مالية لـ «ابن سعود» ليسمح لقواته بالبقاء في إقليم القصيم، إلا أن «ابن سعود» رفض ذلك العرض بسخط واستياء، وأخيراً اضطرت القوات التركية إلى الرحيل. عاد «ابن سعود» بعد ذلك إلى الرياض، وفي الطريق توقف في «شقراء» وهناك استقبل وفداً من «المجمعة» كان قد قدم ليؤدي يمين الولاء لـ «ابن سعود». وأثناء وجوده في «شقراء» وصلته أخبار تفيد بوجود مراسلات تنم عن خيانة بين «فيصل الدويش» زعيم قبيلة «مطير» وبين الأتراك، وعلى الفور أرسل «ابن سعود» حملة تأديبية وأنهى تلك المؤامرة. عاد «ابن سعود» إلى الرياض ليستقبل وفداً قدم إليه محملاً بشكر

السلطان «عبد الحميد» للمعاملة الطيبة التي أبداها للقادة والجنود الأتراك خلال الفترة التي قضوها في الصحراء العربية.

لم ينعم «ابن سعود» لفترة طويلة بالمجد الذي حققه إذ سرعان ما وصلت إليه أخبار مرعجة من «حائل» تفيد بمقتل «متعب» مع اثنين من إخوته. وتفيد الأخبار أيضاً بأن أحد العبيد المخلصين لهم تمكن من تهريب أخاهم الأصغر والنجاة بحياته. أصبح «سلطان بن حمود» الذي اقترف تلك الجريمة حاكماً على «حائل» واستمر في حكمها لمدة عام. وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨ قام «سعود وفيصل» بقتل أخيهم «سلطان بن حمود» ونصب «سعود» نفسه حاكماً على «حائل»، في حين أصبح «فيصل» حاكماً على الجوف وعلى المناطق الشمالية. عارض زعيم جماعة «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» ربط الجوف وتلك المناطق بحائل. ومما لا شك فيه أن معارضته تلك كانت مدعومة من قبل الأتراك الذي كانوا يتحركون خلسة باتجاه مناطق شمال الحجاز. سارعت جماعة واحة «خيبر» في الإعراب عن ولائها للمغدور به «سلطان بن حمود» الذي أسفر عجزه وعدم تأهيله عن تحويل خط سير قوافل الحجاج القادمة من العراق وإيران عن «حائل» إذ كانت القوافل تتوجه من خلال حائل باتجاه «القصيم». على أي حال لم يكن «سلطان بن حمود» ليقبل بخسارته لإقليم «القصيم» بشكل نهائي، واستمر في الاعتماد على قبيلة «مطير» والعائلات الأخرى في منطقة «بريدة» على إبقاء الوضع يسير سلس ومرن.

كان «فيصل الدويش» الحاكم السابق أول من رفع مستوى التمرد، إذ قام في شهر آيار (مايو) عام ١٩٠٧ بحركة تمرد تم سحقها تماماً. وأسفر ذلك

التمرد عن اشتباكات دارت في المجمعة شارك فيها «فيصل الدويش» وأصيب بجراح بالغة.

لم تؤد مهزلة الاستسلام والعفو المعتاد لأي تغيير دائم في سلوكه، إذ نجده في خريف العام نفسه معسكراً بقواته في «الطريفيه» بدعم من «سلطان» ومن زعيم بريدة «محمد أبا الخيل» للانقضاض مجدداً على «القصيم». ولذلك تحرك «ابن سعود» بسرعة باتجاه «سدير»، وهناك استدعى قبائل «عتيبة» و «قحطان» و «سبيع» و «السهول» وطلب منهم الاستعداد بكامل قواتهم، ثم سار باتجاه «عنيزة» وأغار على مواقع قوات «سلطان» المتقدمة، وأرسل بقوة لتسيطر على قبيلة «مطير» في «الطرفية»، ومن هناك تحرك شخصياً على رأس قوة ليلحق بقوات «فيصل» هزيمة نكراء ويحتل معسكرهم. حاول «سلطان» وجماعة «بريدة» مفاجأته في هذا الموقع وأغاروا عليه في العشرين من شهر أيلول، إلا أنهم منيوا مجددا بالهزيمة وفروا باتجاه «بريدة»، ومن هناك هرب «سلطان» إلى «حائل» تاركاً وراءه أخاه «فيصل» ليساعد قوات «محمد أبا الخيل» حين تستدعي الضرورة. أرسل «ابن سعود في تلك الفترة قوة من الخيالة لمراقبة تطور الأوضاع في «بريدة»، كما قام بعدة هجمات استهدفت مناطق في عمق «القصيم» مثل «البكيرية» و «الرس» ومنطقة قبيلة «حرب» المتواجدة حول «النبهانية». وبعد انتهائه من تلك الغارات عاد إلى الرياض ليقضي فيها وقتاً من الراحة.

لم يطل «ابن سعود» الجلوس في الرياض، إذ وصلته أخبار مفادها أن «سلطان» كان يتحرك بقواته باتجاه «بريدة»، وعليه عاد مسرعاً إلى «القصيم»، لكن اتضح فيما بعد أن تلك الأخبار لم تكن صحيحة. وفي

محاولة منه للمسارعة في اعتراض تقدم قوات «سلطان» تحرك بقواته ووصل بها حتى منطقة «الكهفة» لكن لم يجد هناك أي أثر لأعدائه، فشن غارة على معسكر لجماعة «الطوالة من شمر» في منطقة «فيد»، وبعد تلك الغارة سحب قواته باتجاه «البكيرية»، وهناك وصلته أخبار مقتل «سلطان» وكانذلك في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨. سارع الحاكم الجديد للتوصل إلى ترتيبات مع «ابن سعود» الذي صب جل اهتمامه الآن على «بريدة» وفي ذهنه تصور معين لتسوية نهائية. تعب أهالي «بريدة» من حالة التأهب والاستنفار المستمر الذي فرض عليهم نتيجة السياسة الشخصية التي نهجها «محمد أبا الخيل»، ولذلك قاموا باتصالات سرية مع «ابن سعود» واتفقوا معه على أن يفتحوا أحد بوابات المدينة ليلاً خلال أداء صلاة عشاء. كلف «ابن سعود» فريق من رجاله لاحتلال الأبراج والقلاع الموجودة على السور الدائري للمدينة، وفعلاً احتلوها بسهولة وقامت مجموعة تقدر بثلاثمائة رجل بتشكيل ستار لعزل المساحة الكبيرة التي كانت أمام القلعة الكبيرة. أخذ رجال «ابن سعود» يقرأون في الساحات العامة وفي المساجد إعلاناً صدر عن «ابن سعود» يقضي بتأمين سلامة كافة الأهالي المخلصين له ومطالبتهم بالاستسلام وبتسليم كافة الأسلحة. وعلى الفور استجاب الأهالي إلى ذلك النداء، وكل ما بقي أمام «ابن سعود» من العقبات هو التغلب على «محمد» وأتباعه الذين دخلوا القلعة واستحكموا فيها استعداداً لمواجهة الحصار. على أي حال كانوا في موقف ميؤوس منه، وبعد مضي بضعة أيام من المناوشات العقيمة سعى « محمد» وراء الاستسلام. تمت ترتيبات الاستسلام على أساس أن يسلم «محمد» كافة أسلحة وذخائر

أسرته وأتباعه مقابل أن يرحلوا بسلام عن «بريدة» ويتجهوا الوجهة التي يريدونها، وفعلاً اختاروا اللجوء السياسي في العراق واستقروا مع مرور الزمن في «سوق الشيوخ». كان «محمد أبا الخيل» آخر حاكم محلي من «بريدة»، ولم يعد بإمكان «ابن سعود» أن يغامر بنتائج ترك الأسر الرئيسية في «بريدة» تعكر صفو الأمن في مملكته بسبب تنافسها المثير للنزاع على الفوز بالحكم. وكانت هناك حاجة إلى قوة أكبر من قوتهم لضبط روح الاستقلال في إقليم «القصيم»، فعين «ابن سعود» حاكماً على القصيم ابن عمه «عبدالله بن جلوي» المعروف ببسالته وشجاعته، وبقي «عبد الله بن جلوي» في ذلك المنصب لمدة خمس سنوات إلى أن استدعت الحاجة إلى الاستفادة من خدماته في مهام ومسؤوليات في مكان آخر. لم يعد إقليم «القصيم» محور الأمور السياسية في الصحراء العربية، ولم يعد كذلك مصدراً للتوتر الذي سبق أن كان عليه على مدى السنوات الحرجة من نضال «ابن سعود» للسيطرة على «نجد».

استسلمت «بريدة» في اليوم التاسع والعشرين من شهر آيار عام ١٩٠٨ وسارع «سعود» الرشيد (حاكم «حائل» الجديد) للتوصل إلى تسوية لخلافاته مع «ابن سعود». وعلى الفور قبل «ابن سعود» تلك المبادرة واعترف باستقلال «جبل شمر» شريطة أن يتوقف ذلك الإقليم عن تعكير الأمن في المناطق الخاضعة لحكمه. أرسل أهالي المجمعة أيضاً وفداً برئاسة زعيمهم «عبد الله العسكر» لتقديم الاعتذار إلى «ابن سعود» عن تصرفاتهم المريبة وليعلنوا للملأ عن ولائهم للحكم الجديد.

ويبدو أن الفيضان الكبير الذي اجتاح «مكة» جاء كخاتمة لعام شهد

إنجازات مرموقة، فقد جرت مياه الفيضانات وهي تلتف كالدوامة ودخلت الكعبة المشرفة وشكلت حول الكعبة نفسها بحيرة بلغ عمقها حوالي عشرة أقدام. سرعان ما تلاشت أحلام «ابن سعود» في العيش بفترة سلام بسبب المشكلات التي تفجرت من جديد في «حائل». فكما سبق أن أشرنا تم إنقاذ الوريث الشرعي للحكم في «حائل» والمدعو «سعود بن عبد العزيز بن رشيد» والذي كان قد بلغ من العمر آنذاك عشر سنوات من براثن المجزرة التي قام بها «سلطان بن حمود» للاستيلاء على السلطة، إذ تمكن أحد العبيد المخلصين من تهريبه إلى «المدينة».

إن استمرار المشكلات في «حائل» جعل الوجهاء من الأهالي هناك يفكرون في العودة إلى السلالة الشرعية لتحقيق الاستقرار والأمن، فتزعم هذه الحركة اثنان من عائلة مرموقة وقدر لهما أن يلعبا دوراً قيادياً في الأمور السياسية لمنطقة «جبل شمر» وعلى مدى حوالي اثني عشر عاما من الفترة التي ظلت خلالها «حائل» منطقة تتمتع باستقلاليتها. كان «حمود بن سبهان» هو منفذ وصاحب فكرة الانقلاب الذي حدث في شهرشباط من عام ١٩٠٩ بالتواطؤ مع ابن عمه «زامل بن سبهان». فبعد أن حشدا الدعم اللازم لخطتهما تلك عملا على حشد القوات اللازمة لتحقيق آمالهم في انتصار خطتهم. تم إحضار «سعود» - الشاب الصغير - من «المدينة» وقام أنصاره بفتح بوابات المدينة له، وهناك نشب قتال قتل فيه «سعود بن حمود» كما تم تصفية بقية أعضاء أسرته بالقتل، علماً بأن اثنين منهم وهما «ضاري» و «فيصل» تمكنا من الهرب إلى الرياض، بعدها تم تنصيب «سعود بن عبدالعزيز» ابن رشيد أميراً تحت وصاية «حمود بن سبهان» الذي تصادف أن كان زوجاً لشقيقته وهي

البنت الوحيدة التي خلفها «عبد العزيز». كان «زامل» اليد اليمنى في حكم ذلك الإقليم، لكن بعد مضي بضعة أشهر توفي «حمود» مسموماً وخلفه «زامل» كوصي على الحكم. وليقوى قبضته على شؤون الإقليم أقدم «زامل» على الزواج من والدة «سعود» التي سبق لها أن تزوجت ثلاثة من قبله، فكان زوجها الأول «محمد الكبير ابن رشيد» وبعده تزوجت «عبد العزيز بن رشيد» وبعده «سلطان بن حمود» وهو الشخص الذي قتل «متعب» ابن زوجها وخلفه في الحكم. لم تكن العزلة المفروضة على النساء في الصحراء العربية لتمنعهم من تحريك القطع الهامة على رقعة الشطرنج السياسية.

كان أول تحرك قام به «حمود» هو محاولة لكسب رضي «ابن سعود»، لكن الروايات التاريخية المتوافرة، رفض «ابن سعود» محاولة «حمود» التقرب منه. حدث ذلك الرفض خلال فترة قصيرة سبقت قيام «زامل» بتنظيم غارة على جماعة «مطير». وكإجراء انتقامي قام «ابن سعود» بالهجوم على جماعة «شمر» التي كانت بجوار منطقة «شعيبة»، وأقام فيها مقراً لقيادته وبدأ يجوب النفوذ بحثاً عن «زامل» الذي علم بأنه كان يناور لشن هجوم مضاد. تحرك «ابن سعود» بعد ذلك إلى مكان يقال له «الاشعلي» وهناك نصب خيامه بعيداً بعض الشيء ليراقب تطور الأحداث. عشر «زامل» (أثناء تحركه تحت جنح الظلام) على معسكر «ابن سعود» وأخبرته دوريات العسس بأن المعسكر كان خالياً من الناس، وعليه أعد الترتيبات لمهاجمته، فتقدمت قواته باتجاه المعسكر ونهبت ودمرت كل معداته وممتلكاته. لكن بقيت قوات «ابن سعود» تراقب الوضع عن بعد إلى أن حان الوقت للقيام بهجوم مفاجئ. نجم عن ذلك الهجوم الهزيمة المحققة وتابع

«ابن سعود» مسيره باتجاه «قبة» ومنها إلى «القصيم» ومن ثم إلى الرياض.

أصبحت الآن كافة مناطق وسط الصحراء العربية على شفا جفاف قاسي. حدث الجفاف لعدة سنوات إلى درجة أن الوثائق التاريخية للصحراء العربية أشارت إليه باسم «السحت»، وذلك يعني «العقم المطبق». وبالرغم من ذلك الجفاف أو ربما بسببه دخلت المنطقة في فترة عصيان وانشقاق وعدم استقرار شامل، اضطر «ابن سعود» خلال تلك الفترة إلى استنزاف كافة مصادره الشحيحة. حدث خلال تواجده في الشمال أن تلقى والده «عبدالرحمن» أخباراً غير سارة تفيد بحدوث مشاحنات محلية في منطقة «الحريق»، والتي حدث فيها أن قُتل «الهزاني» على أيدي اثنين من أبناء عمه. قامت القوة التي أرسلت إلى هناك لإنهاء المشكلات واعتقال القتلة الذي قام بدوره بذبحهما بعد محاكمة وفق الشريعة الإسلامية. وما أن عادرت تلك القوة المنطقة حتى حدثت جريمتان أخريان، عندها توجه «عبد العزيز» بنفسه إلى هناك وأصر على معالجة المشكلة وفق الشريعة الإسلامية، إلا أن المعنيين بالمشكلة لم يستجيبوا له والتجأ القادة المعنيون إلى قلعتهم واحتجتموا فيها وقاوموا حصاراً دام لمدة خمسة عشر يوماً، وأخيراً وضع «ابن سعود» لغماً تحت القلعة وهدد بنسفها بمن فيها، وعليه استسلم المعتصمون وأرسلوا إلى الرياض ليسجنوا في سراديب سجن «المصمك» لمدة عامين بعدها أطلق سراحهم بسبب تدخل «قاسم آل ثاني» أمير قطر.

في تلك الأثناء نشبت خلافات صعبة بين الشيخ «مبارك» أمير الكويت و«سعدون باشا» والي منتفق العراق. ناشد الشيخ «مبارك» الأمير «سعود» وطلب منه المساعدة، واستجابة منه لتلك المناشدة سار «ابن سعود» بقواته

باتجاه مقاطعة «الهجرة» بالقرب من الحدود العراقية، ومن هناك سار بقوة تقدر بما يزيد على سبعة آلاف رجل كان القسم الأعظم منهم من رجال الكويت تحت إمرة الشيخ «جابر». وبعد فترة قصيرة اشتبكوا مع قوات «سعدون باشا» التي بلغ تعدادها نفس تعداد قوات «ابن سعود» لكنها تميزت وبشكل ملحوظ بفرقة الخيالة. تجاهل «جابر» نصيحة «ابن سعود» بأن يدع المقاتلين من البدو يهاجمون المعسكر، وفتح جبهة القتال من ناحية «الهدية» بأن دفع فرقة الفرسان في مقدمة الهجوم وكان ذلك في اليوم السادس عشر من شهر حزيران عام ١٩١٠. احتفظ «سعدون» بفرسانه في حالة احتياط ولم يطلق يدهم في القتال إلا بعد أن توقف عدوه عن المنازلة وتمكنوا من ردهم على أعقابهم بعد أن دبت بهم حالة الفوضى. تلاشت القوات المتحالفة في الصحراء وولت الأدبار باتجاه الكويت، وقامت قوات «المتفق» باحتلال معسكرها ونهب كل ممتلكاته.

لم تكن تلك المعركة سوى جزء من تحرك سهل كان القصد منه تضييق الخناف على جهود «زامل بن سبهان» الرامية إلى استعادة شيء ما من مجد «حائل» القديم. في الوقت الذي كان فيه «سعدون باشا» متحالفاً مع «زامل» بادر أمير «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» وانضم إلى عمارات «عنزة» ليضغط على «زامل» في الشمال والشمال الشرقي، في حين كان «ابن سعود» وإلى جانبه الكويتيون يمارسون الضغط عليه من جهة الجنوب. والجدير بالذكر أن «نوري الشعلان» كان قد تمكن في تلك المرحلة من إقصاء «الجوف» ومنطقة «وادي السرحان» عن تحالفها وولائها السابق إلى «حائل». سبق أن بينا أيضاً كيف أن أحد بنود هذا البرنامج قد انحرف عن

مجراه في منطقة «الهدية» بأن حدث عند حوالي تلك الفترة أن هاجم «زامل» القوات المتحالفة في شمال منطقة «الجميمة»(*). وفي تلك المرحلة أيضا ثار سكان واحة «تيماء» في الغرب، وعلاوة على ذلك قامت القوات التركية التي قدمت من المدينة تلبية لدعوة السكان باحتلال الواحة. وحيال هذه الأمور وجد «زامل» نفسه مضطراً لاتخاذ إجراء معين، ومرة ثانية كان النجاح حليفه وتمكن من إجبار الحامية التركية على التراجع وانتقم من السكان لانحرافهم عن الولاء له. وفي نفس الوقت قام «سعدون» و«زامل» اللذان استغلا ولدرجة كبيرة الجفاف المسيطرعلى المنطقة بترتيب المكائد مع جماعة «العجمان» في شرقي الصحراء العربية، ونجحوا في ممارسة المزيد من الضغوط على قوة «ابن سعود». وازداد الوضع تعقيداً نتيجة لحقيقة أن الحاميات التي كانت تحت إمرة «سعود بن فيصل» كانت قد غادرت الرياض خلال فترة غياب «ابن سعود» على رأس الحملة التي توجه بها إلى منطقة «الهدية» وانضمت إلى قوات جماعة «العجمان» المعادية. والجدير بالذكر هنا أن «سعود بن فيصل» كان قد رجع إلى عائلة «آل سعود» (كما سبق أن أشرنا) بعد أن استولى «ابن سعود» على «عنيزة» عام ١٩٠٤. كانت تلك تطورات سيئة أسفرت وبشكل مباشر تقريباً عن نتائج وخيمة، ولم يعد بالإمكان تعيين أبناء العم في مناصب إقليمية دون المغامرة بمخاطر محتملة. ولم ينسى أبناء العم هؤلاء أسبقيتهم ورفعة منزلتهم في شرعية الخلافة على الحكم، علماً بأن «ابن سعود» عاملهم بكل تقدير واحترام، لكن ليس من الغريب أو المفاجئ على جماعة من الشبان في ريعان الشباب أن يغتاطوا

(*) من قرى رفحا بمنطقة الحدود الشمالية.

بسبب العضالة المفروضة عليهم في زمن كان العالم أمامهم مملوء بفرص المغامرة والمتعة.

مع بداية عام ١٩١١ قام «زامل» بمبادرة للتوصل إلى السلام، وقبلت مبادرته على أساس الاعتراف باستقلاله في منطقة «جبل شمر» فقط، وكان ممكن لتلك الترتيبات أن تدوم طالما أنها تناسب مصلحة الأطراف المعنية، إضافة إلى أنه قد ظهر الآن عدو آخر من ناحية الغرب. لم يفقد الأتراك الأمل أبداً في فرض سيطرتهم على وسط الصحراء العربية، علماً بأنهم منيوا بالفشل على أيدي «ابن رشيد» بسبب تجربتهم السابقة. آل ذلك الأمل إلى «الشريف حسين» الذي كان قد عين أميراً على مكة عام ١٩٠٨، وهو العام الذي تم فيه إنجاز خط سكة حديد الحجاز فبلغ أقصى مسافة له حتى حدود المدينة المنورة. عاش «الشريف حسين» فترة طفولته بين البدو قبل أن يذهب للقسطنطينية (استانبول) ليقضي هناك منفى دام لفترة طويلة، والآن وقد بلغ من العمر ستين عاماً توفرت له الفرصة الأولى ليبدي ما يمكنه عمله من أجل إثبات نفسه كعنصر هام في مجال السياسة المتعلقة بالصحراء العربية.

وبشكل عام وبدون اتخاذ أي إجراء إيجابي، قلد «الشريف حسين» سلفه في تعطيل الأعمال الخاصة بمشروع سكة الحديد الممتدة إلى مكة. وأبدى «الشريف حسين» بوادر تدل على براعة وقدرة في قيادة الحملة التي فوضه «الصدر الأعظم» للقيام بها ضد الزعيم الإدريسي المتمرد والمدعو «محمد» والذي كان قد احتل مرتفعات «عسير» و «أبها» في تلك الفترة. تمكن «حسين باشا» من استرداد إقليم «عسير» وإعادته إلى أسياده الأتراك، وعاد

إلى مكة منتصراً عن طريق واحات «بيشة» و «رنية» و «تربة». شجعت الإنجازات التي قام بها «حسين باشا» على الاستفادة من خدماته في محاولة لتعزيز نفوذهم في الصحراء العربية. وفي نهاية عام ١٩١١ أو بداية العام التالي تحرك «الشريف حسين» على رأس قوة ضخمة مروراً بمناطق قبيلة «عتيبة» ووصل إلى «القويعية» وذلك في نفس اللحظة التي كان«سعد» بن عبدالرحمن الأخ المفضل لابن سعود قد وصل إليها لحشد المحاربين في صف ابن سعود. تمكن «الشريف حسين» من اعتقال «سعد» وأخذه كرهينة وطلب من «ابن سعود» أن يدفع فدية لإطلاق سراحه، وتجلت تلك الفدية في قبول «ابن سعود» بسيادة السلطة العثمانية إضافة إلى دفع جزية اسمية عن إقليم «القصيم».

قام بمطاردة قوات «الشريف حسين» التي تراجعت باتجاه الغرب حاملة معها ما سلبته من غنائم ثمينة. والمعروف عن «الشريف حسين» أنه كان يتجنب الأماكن التي يمكن أن تستعر فيها المشكلات على نار هادئة. ولم يكن أمام «ابن سعود» الكثير من الخيارات، فكان مستعداً لفعل أي شيء لإنقاذ أخيه من براثن العدو. وبعد أن فشل عدة مرات في التفاوض مع الأتراك عبر قنوات أخرى، وجد نفسه مضطراً للتوقيع على الوثيقة التي عرضها عليه «الشريف حسين». حمل «الشريف حسين» تلك الوثيقة وهو في غاية السعادة وتم إطلاق سراح «سعد» والتحق بقوات أخيه. لقد حقق أمير مكة نصراً فنياً للموقف التركي، إلا أن «ابن سعود» لم يلزم نفسه ببنود الاتفاقية، فلم يدفع «ابن سعود» أية جزية وقام بأعمال دلت على تراجعه عن تلك الوعود الشفهية التي كانت تكتيكاً من ابن سعود استطاع من خلالها

أن يقوي صفه في وجه خصومه السياسين في تلك الفترة.

وأثناء وجود ابن سعود في الصحراء الشرقية لمتابعة فلول المتمردين وصلته رسالة من الشيخ «مبارك» يطلب فيها مساعدته ضد «المنتفق» و «الظفير» المتواجدين في المناطق المتاخمة للحدود العراقية. لكن بعد تجربته الأخيرة مع «جابر» في منطقة «الهدية» لم يكن «ابن سعود» في وضع يمكنه من التعاون مع «مبارك»، إلا أن الرسالة العاجلة الثانية التي أرسلها «مبارك» إليه حملته على أن يغير رأيه فتحرك على رأس قوة كبيرة للغاية باتجاه «حفر الباطن» وهناك قدم إليه «حمود بن سويط» زعيم قبيلة «الظفير» وعقد معه اتفاقية سلام، كما أطلعه بأن «مبارك» نفسه كان قد حذره من تقدم قوات «ابن سعود»، لكن على ما يبدو كان «مبارك» يعمل على توازن القوى في الصحراء العربية.

أغار «ابن سعود» على جماعة «المنتفق» في منطقة «كبيدة»، وفجأة وجد نفسه في منطقة «صفوان» المجاورة للبصرة والزبير. ومهما يكن الدافع وراء استعراضه للقوة تلك والتي جاءت في وقت كان فيه الأتراك متوترين ومشدودين بسبب انتشار حركة القوميين العرب في سوريا والعراق وفي أماكن أخرى بعد ثورة عام ١٩٠٨، فنجد أن «ابن سعود» وافق على الانسحاب من تلك المناطق بعد أن وصل إليه وفد ودي يمثل والي البصرة ويمثل أهالي «الزبير»، وفعلاً سار بقواته باتجاه «الجهرة» القريبة من الكويت. وبعد لقاء ودي بالشيخ مبارك الصباح قام «ابن سعود» بغارة ثانية على جماعة «العجمان» في مناطق «الأحساء».

ومما لا شك فيه أن الأتراك تفاجأوا بمكانة وإمكانية «ابن سعود» المتنامية

وبتأثيره على شؤون الصحراء العربية، لذا سعوا لجلبه إلى مجالسهم ليشكل ثقل مقابل حركة القوميين العرب التي كانت تنشط في المناطق المأهولة القريبة من حدود المناطق التي يسيطر عليها. وعليه تم تفويض والي «البصرة» المدعو «سليمان شفيق باشا» بالتحقق من تصرف ذلك الزعيم السعودي وأخذ النصيحة منه بخصوص أفضل الطرق التي يمكن نهجها للتعامل مع حركة القوميين العرب.

الحقيقة أن جواب «ابن سعود» للأتراك كان موثقاً تاريخياً، كما كان جواباً مشوقاً باعتباره أول مقالة تصدرعن فن الحكم في إدارة الأمور وبعد تمهيد أو مقدمة لتلك الوثيقة القانونية والتي حمل «ابن سعود» فيها الأتراك المسؤولية التامة عن المشكلات التي تحيق بهم في كل مكان من إمبراطوريتهم في العالم العربي، يقول «ابن سعود» إن الأتراك اكتفوا بكونه حكاماً دون أن يقوموا بواجبهم تجاه المسؤوليات الملقاة على عاتق الحكام والتي تستوجب التفكير في سعادة ورفاهية رعاياهم، وأضاف أنه إذا أراد الأتراك السلام في الصحراء العربية وإذا أرادوا أن يعالجوا بحرية المشكلات المحلية عليهم أن يتوصلوا إلى تفهم مع العرب مبني على أساس طوعي فعلي، وعليهم أن يعقدوا اجتماعاً لكافة زعماء القبائل العربية كبيرهم وصغيرهم دون استثناء، على أن يكون ذلك الاجتماع في مكان غير خاضع لإدارة الحكم العثماني لكي تتوافر حرية التعبير عن الرأي بشكل مطلق. ويمكن أن تكون الغاية العامة من ذلك الاجتماع إيجاد تجانس بين العرب وإقامة صداقة بينهم وبين الحكومة العثمانية. أما بالنسبة للهدف المحدد فيمكن أن يكون الخيار بين بديلين: إما أن يشكل العرب مجموعة واحدة يرأسها حاكم يختاروه

بأنفسهم، أو أن تستمر الترتيبات الحالية للفئات أو الكيانات السياسية المنفصلة، ويكون ذلك الاستمرار على أساس الاستقلال الإداري المحلي التام، ويعمل كل كيان منها تحت إمرة حاكم يتصرف وكأنه والي في إقليم تركي له حدود محددة ثابتة، أو إذا استدعت الضرورة يمكن أن تحدد تلك الحدود من خلال المساعي الحميدة للحكومة التركية، وفي كلتا الحالتين تبقى الأراضي العربية تحت سيادة السلطان التركي المهيمنة والذي يكون بدوره مسؤولاً عن إعداد الترتيبات الخاصة بالدفاع والتطور. ويتوقع من كل كيان حاكم أن يتعاون مع جيرانه من أجل صيانة وتعزيز الرخاء. وبالعمل الجماعي يمكنهم ردع أو هزيمة أي اعتداد من قبل أية جهة. ويختم «ابن سعود» خطابه قائلاً إنه بهذه الطريقة وحدها يمكن التوفيق بين مصالحكم ومصالحنا، كما يمكن خدمتها وضمان حمايتها ضد أي عدو خارجي.

تشير النصوص التاريخية إلى أن والي البصرة أعرب عن إعجابه بالوثيقة أعلاه ونقلها إلى الصدر الأعظم لدراستها والنظر فيها. ويبدو أنه تم النظر إلى تلك الوثيقة - وربما بشكل لا خيار له فيه - على أنها جهد قام به «ابن سعود» ليعزز من سيادته على كافة مناطق الصحراء العربية بدعم من الإمبراطورية العثمانية وعلى حسابها أيضاً. وبالرغم من ذلك يمكن أن يكون من الأفضل للصدر الأعظم لو أنه اختار هذه الفترة التي تميزت بهدوء نسبي ليعد أشرعته على نحو يتناسب مع العاصفة القادمة. لم يكن أمام «ابن سعود» بديلاً إلا أن يعتمد على ترتيبات بديلة ليقي نفسه من الخطر، خاصة أنه أدرك أن اقتراحاته لم تلقى آذاناً صاغية. كان «ابن سعود» خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية قد حاول جاهداً أن يستميل اهتمام الحكومة البريطانية

لصالحه كقوة وحيدة لها مصالح حيوية وقوة فعالة في الخليج، إذ كانت تدور في رأسه فكرة ضمان مكانته ومركزه في الصحراء العربية ضد أي اعتداء كان، لكن لم تكن لدى البريطانيين الرغبة في التدخل في مغامرات الصحراء. وكانت الحكومة البريطانية مهتمة كثيراً باسترضاء الأتراك على الصعيد الدبلوماسي لأقصى درجة ممكنة وبشكل يتناسب مع حماية مصالح البريطانيين في الخليج. وهكذا ومع استمرار سيطرة العثمانيين لإقليم «الأحساء» الذي بدأ عام ١٨٧١ والسيطرة الفعلية للبريطانيين على كافة منافذ سواحل الصحراء العربية من الكويت حتى مسقط، وجد «ابن سعود» نفسه محاصراً في الصحراء. وحتى وجد نفسه في هذه المناطق الداخية المغلقة عرضة لهجمات يمكن أن يقوم بها أعداؤه من جهات الشمال والغرب بدعم وتشجيع من قبل العثمانيين.

لا بد أن «ابن سعود» أمضى خلال سنوات النضال هذه العديد من الساعات في التفكير المضني وفي دراسة الطرق والوسائل التي تمكنه من مجابهة تقلبات القدر التي يصعب التنبؤ بها، والتي سبق أن وضعت أسلافه وأجداده عند فواصل زمنية من تاريخ الدعوة الوهابية التي كانت تنجح حيناً وتخفق حيناً آخر، والتي كانت أسرة «آل سعود» قد بنت عليها موقفاً استطاعت من خلاله السيطرة على الصحراء العربية. هذا وشهد «ابن سعود» نفسه كما لعب دوراً بارزاً في انهيار حكم «محمد بن رشيد» الذي حدث في اللحظة التي أقصى فيها الموت يد تلك الشخصية القوية عن دفة الحكم. سبق أن كان للقيادة الضعيفة دور في تبدد الإمبراطورية العربية القوية في الأيام الأولى من الرسالة الإسلامية، كما أسهم في تبددها أيضاً

ذبول القناعات التي لها صلة بغنى ورخاء الأقاليم التي تم فتحها من قبل المسلمين. ومن الواضح أنه كان هناك ثمة ضعف في تركيبة مجتمع الصحراء العربية، بمعنى أنه بقدر ما كان يتمتع بقوة بطولية ناجمة عن قضية عظيمة أو شخصية عظيمة، إلا أن تركيبة المجتمع القبلي جعلته عاجزاً عن الحفاظ على انضباط ضروري لتنمية ثمرات انتصارات تحققت على يده لخدمة الناس كافة. كانت قبائل الصحراء وكذلك المدن مهووسة بحس الولاء المحلي أو القبلي الذي هيمن على الروح الجماعية والروح الوطنية الأكثر شمولية والتي هي أكثر ضرورة للحفاظ على النظام في البلاد. سخر «ابن سعود» كل جهوده لمعالجة ظاهرة الضعف هذه وأصر على إيجاد العلاج لها طالما أن ذلك ممكناً. أملى عليه تاريخ أسرته أن يكون الدين هو العنصر الرئيسي في العلاج، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» ووالده كانا الورعين المخلصين على سنة السلف الصالح. على أي حال يمكن الافتراض أن فكرة إحياء حركة الدعوة الإسلامية كانت تعمل في فكر «ابن سعود»، على أنها أداة سياسية هامة، ولذلك كان «ابن سعود» قد طعم النموذج الاعتيادي المتبع في إحياء مثل تلك الحركات بمفهوم جديد، وحدد أيضا نقطة لترتكر عليها جهود رسله الذي توجهوا لهذا الغرض إلى القبائل البدوية. وبدأت نتائج جهوده تؤتي أكلها في أوائل عام ١٩١٢.

تجمعت في ذلك العام أعداد كبيرة مختلفة من رجال قبائل «حرب» و«مطير» في منطقة «حرمة» (بالقرب من «المجمعة») وبدا عليهم أنهم تأثروا فعلاً بمواعظ وتحذيرات رجال الدين الموفدين إليهم، ومقتنعين بالجزاء والثواب من الله. وكان الهدف من تجمعهم هناك تثقيف أنفسهم حول هذا

الموضوع والسماع من مصادر أكثر اطلاعاً بأمور الدين من الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم «ابن سعود» إليهم، وما كان من المتحمسين المتدينين من أبناء تلك المنطقة إلا أن أمدوهم بما كانوا يحتاجونه من علم، لكن سرعان ما قام بعض الأهالي هناك بأن أفسد ميولهم للتعصب الديني ومحاولاتهم في وضع النفس على الصراط المستقيم.

قرر أفراد هذا التآخي الجديد والذي سرعان ما تكتسب اسم «الإخوان» (الذي أصبح تعداد المنتمين إليه حوالي خمسين رجلاً مع أسرهم) أن يهاجروا إلى مناطق مجاورة تكون أقل تعرضاً للشبهة، ووقع اختيارهم على مناطق آبار «الأرطاوية» الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم، وأقاموا فيها قرية سرعان ما تحولت إلى نموذج أولي تحذو حذوه المعسكرات الدينية الأخرى المتشددة والتي انتشرت واحدة تلو الأخرى في كافة أرجاء الصحراء العربية، وبالتحديد في الأماكن حيث الظروف كانت مواتية لتأسيس حياة جماعية. وضع «ابن سعود» كل التسهيلات الضرورية تحت تصرف الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم إلى القبائل لتنشيط هذه الحركة وتكاثرها فيهم، فوضع تحت تصرفهم المال والأدوات الزراعية والبذور ومدرسي الدين ورودهم بالمال الكافي لبناء المساجد والمدارس والمساكن، وأخيراً وليس آخراً وضع تحت تصرفهم السلاح والذخيرة للدفاع عن معتقدهم الذي كانت المادة الرئيسية فيه هي تأييد العادات الدينية والتخلي عن كافة ممارسات النظام القبلي القديم.

وبغض النظر عن انتمائهم القبلي أو وضعهم الاجتماعي، كرس كافة الرجال من الإخوان والذين ارتضوا هذا النظام كرسوا نزعة القتال الطبيعية

عند العرب لخدمة دين الله وخدمة القائمين عليه في الأرض، وأصبحت غارات القبائل بعضها على بعض شيئاً منبوذاً كما نبذت أعمال قطع الطرق وتدخين السجائر وأشياء أخرى من مسببات الرفاهية والمتعة التي كان يمارسها الأولون، وأصبح هم الناس في تلك المجمعات الدينية هو السعادة في الآخرة وكيفية لقاء الخالق بعد الموت.

انتشرت نشاطات الخمسين رجلاً من الإخوان على نطاق واسع بين القبائل التي سبق أن هجروها، وتهافت عليهم الرجال لتنضم في صفوفهم من كل حدب وصوب، ولتزيد من أعدادهم، وسرعان ما تحولت «الأرطاوية» إلى مدينة بلغ تعداد سكانها في أوج نموها حوالي عشرة آلاف نسمة. وفي منطقة «ضرما» نهجت هجرة «الغطغط» منهج «الأرطاوية» وشكلت عناصر قبيلة «عتيبة» فيها نواة تعاظمت مع مرور الزمن لتصبح ثاني منطقة من حيث الحماسة والأهمية بعد «الأرطاوية».

كثرت تلك القرى في كل مركز مناسب وازداد عددها بشكل مفاجئ. وقبل أن ينتهي ذلك العام على وجه التقريب وجد «ابن سعود» نفسه قائداً على جيش محلي معظم جنوده من المتطوعين وبالتحديد من البدو، وكان بإمكانه أن يعتمد على إخلاصهم له حتى الموت بالرغم من أنه كان في حاجة مستمرة لدعم قوات أعتى منهم كان قد جلبها من المدن والقرى، ذلك الدعم كان من الممكن أن يجعل من شجاعتهم غير المنضبطة والعارمة قوة فعالة يستفاد منها. وكان عليه أن يضبط حماسهم المتعصب والهادف إلى تدمير الكفرة سواء في ساعات النصر أو حتى في زمن السلم. والجدير بالذكر هنا أن الكفرة بالنسبة لأولئك البدو ليسو فقط الأشخاص غير المسلمين بل شمل

ذلك التعبير المسلمين الذين لا يشاركوهم في مفاهيمهم الأصولية الخاصة بالعقيدة.

ومنذ ذلك الحين أصبح جيش «ابن سعود» يشتمل وباستمرار على فرقة من رجال الإخوان تلازمه في مسيرها. وكان لكل تصنيف من تصنيفات فرق الجيش عمل محدد تقوم به في العمليات الواجب تنفيدها، وكانت مهمة فرقة الإخوان تنشيط العمليات ورفع المعنويات عند المقاتلين. ازداد عدد تجمعات الإخوان على مدى السنوات اللاحقة ووصلت إلى المئات في تعدادها، وانتشرت الهجر ووصلت إلى أقاصي مناطق عالم البدو في الصحراء العربية.

لكن لا بد من أن يعزى شرف المكان في سجل التشريفات إلى المعسكرات الأولى التي كانت القدوة والنموذج الذي احتدت به بقية تجمعات الإخوان، كما أن أسماء هذه المعسكرات الأولى تستحق أن تذكر في سجل الأحداث التاريخية. استقر رجال قبيلة «مطير» (الذين تحولوا إلى حركة الإخوان) في منطقة «الأرطاوية» وامتدت أغصان فروعهم إلى «مبايض» و بوضا» و «فريثان» و «مليح» و «العمار» و «الأثلة» و«الأرطاوي» و «مسكة» و «ضرية» و "القريتين". كانت جماعة «برقا» من قبيلة «عتيبة» هي الجماعة المسؤولة عن «الغطغط» و «الروضة» و «عروى» و «سنام»، في حين عملت جماعة «الروقة» على إنشاء تجمعات في «الداهنة» و «الصوح» و«عرجاء» و «ساجر» و «عسيلة» و «كبشان» و «نفي». اتخذت جماعة «حرب» تجمعات لهم في «دخنة» و «الشبيكية» و «الدليمية» و«القرين» و «الساقية» و «حليفة» و «حنيظل» و «البرور» و «خصيبة» و «قبة» و «الفوارة»، هذا واستوطنت

جماعة شمر الذين انضموا إلى حركة الإخوان في «بنوان» و «فطيم» و «القصير» و«الحفير» و«البلازية» و«حبة» و «التيّم» و «الأجفر» و«كهفة» و«الغيضة» و«بيضا نثيل». استقر المنتمون إلى الإخوان من قبيلة «عنيزة» في «الشعيبية» و «القلبان» و «الشقيق»، في حين توجهت جماعات «هتيم» المتواضعة إلى «خريفط» و «المشاش» و «المرير»، كانت جماعة قحطان مسؤولة عن «الهياثم» و «الجفر» و «الحصاة»، إضافة إلى منطقتي «الرين العليا والسفلى»، كما استقرت جماعات الدواسر في «المشيرفة» و «الوسيط» إضافة إلى مناطق أخرى. هذا واستقرت جماعات «عجمان» في منطقة «الصرار» و «حنين» و «الصحاف» و «العقير» و«عريعرة» واستقرت جماعة «العوازم» في «الحسي» و «ثاج» و «الحناة» و«عنيق»، وكانت هناك تجمعات تواجدت فيها فئات مختلفة مثل «الشباك» و«مبيرك» و «عين دار». استقرت جماعات «سبيع» و «السهول» في منطقة «الضبيعية» و «البدع» و «منيف» و «الأخضر» و «النسم» و«الريضة».

وهكذا كانت أماكن العشائر ومناطق تجمعاتهم التي بدورها شكلت نواة لإدارة جديدة سرعان ما أقدم «ابن سعود» على امتحان قدراتها من خلال الحملات التي قام بها في المرحلة الثانية من محاولته للهيمنة التامة على الصحراء العربية.

تجاوزت تلك الحملات وبشكل دقيق مرحلة عقلية الحرب القبلية ووصلت إلى مستوى رفيع بلغت فيه صعيد الصراعات الدولية. وكان لـ «ابن سعود» مكانة في القضايا المطروحة أرفع قدراً من أي دور لعبه حتى الآن. وليس بالإمكان أن ننكر بأن «ابن سعود» كان مداناً في الكثير من

النجاح الذي حققه لجماعات الإخوان، علماً بأنهم في نهاية المطاف عرضوا حنكته في سياسة الأمور إلى اختبار صعب مليء بالمشكلات، وحدث ذلك عندما بدأت التزاما ت «ابن سعود» حيال دول العالم تتعارض مع المعتقدات الدينية «للأخوان». ويوضح المؤرخ المختص بشؤون «نجد» (والذي دوّن ملاحظاته طبعاً بعد وقوع الأحداث) قائلاً إن «ابن سعود» كان ولدرجة كبيرة سمحاً كريماً في تبني تجمعات الإخوان ومساعدتها في الوقوف على أقدامها. عين «ابن سعود» أميراً في كل منطقة ليتأكد من أن العدالة الاجتماعية بين الضعيف والقوي كانت مرعية ومطبقة. كانت جماعات المطاوعة والمشايخ تعمل على تغذية الاحتياجات الدينية والروحية، إذ كان واجبهم تدريس مبادئ العقيدة وتفسير الشريعة الإسلامية المقدسة. علاوة على ذلك قدّم «ابن سعود» للإخوان الطعام على محمل سخي، كما قدم لهم المعدات الزراعية والاحتياجات الأخرى، إضافة إلى السلاح والذخيرة.

وبهذا الشكل بقيت تجمعات الإخوان صامدة في عقيدتها على مدى خمسة عشر عاماً. ويعلق المؤرخ على أوضاعهم بقوله إن أحوالهم استمرت على ذلك النحو إلى أن جعلتهم رفاهيتهم وغناهم يتباهون بأنفسهم ويستكبرون، وأصبحوا يتفاخرون أو يتبجحون بقولهم إن كافة الانتصارات التي تم تحقيقها جاءت كنتيجة لفضائلهم ولتدينهم وبسالتهم الفائقة. لكنني بعد هذا الفصل سأناقش الأمور التي ترتبت على سلوكهم وتصرفاتهم.